العرب
الخميس 2020/12/24
السنة 43 العدد 11921

كتاب يشرّح تضخّم الذات في زمن الإنترنت

«عصر الفرد المستبد».. الإفراط في الاعتماد على الوسائط الرقمية يهدّد مصير البشرية

فيسبوك وتويتر وإنستغرام وسواها ليست لعبا مسلية، بل هي أدوات تشكل الروح الجديدة للأفراد، حيث تعدهم بأن يكونوا، شأن أقوياء هذا العالم، مقروئين ومسموعين، بعد أن وجدوا فيها وفي الإنترنت عموما إجابة عن شعورهم بالإحباط، وعن تجاهل الحكام لمطالبهم والاعتراف بحقوقهم. وقد غذّى التواصل التكنولوجي المفرط في نفس كل فرد شعوراً زائفا بالقوة، ما يفسّر انفجار الغضب في الكثير من المجتمعات.

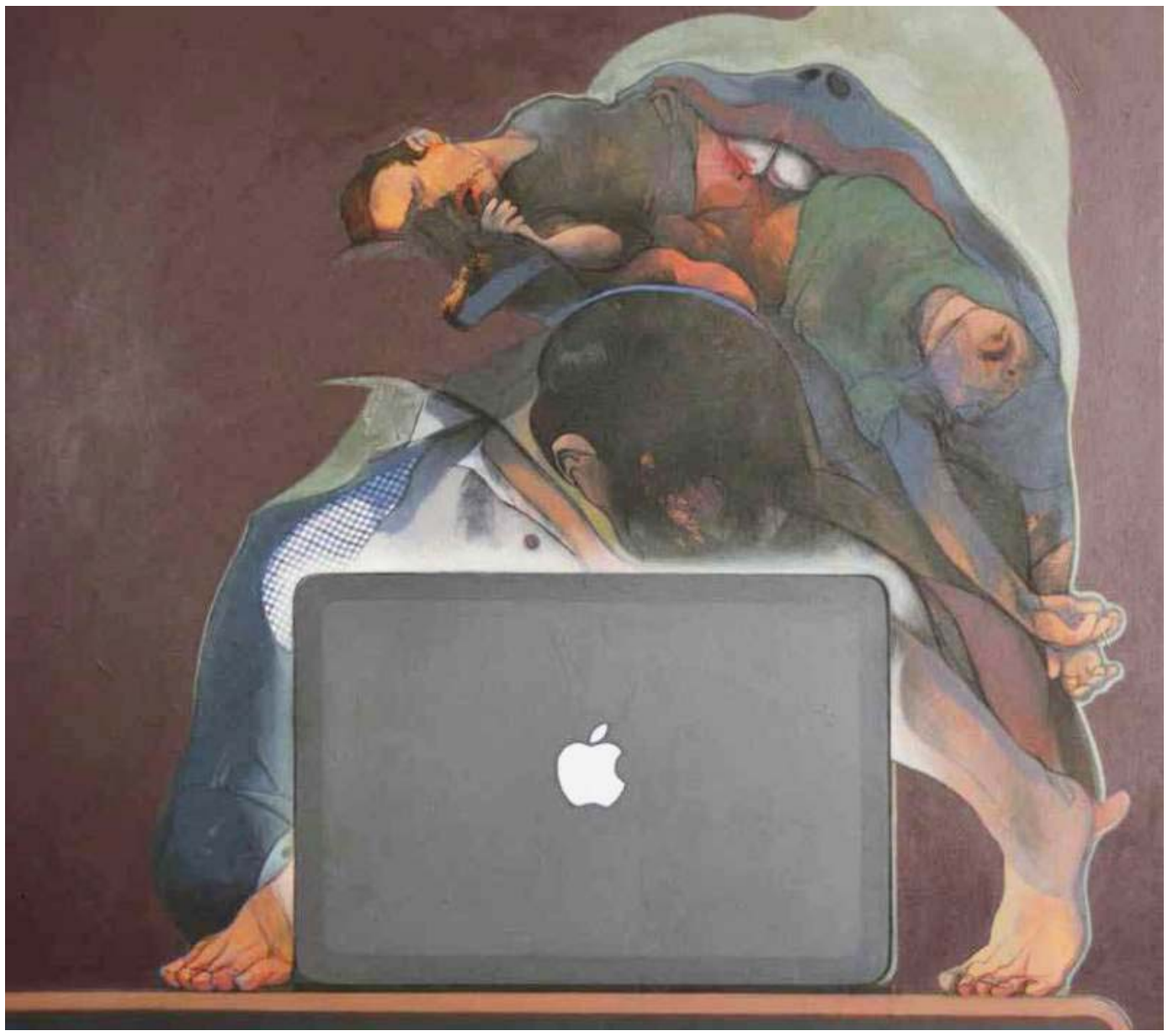

سوق للعلاقات الاجتماعية الملتبسة (لوحة للفنان محمد ظاظا)

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

تشهد أوروبا في الأعوام الأخيرة موجات احتجاج عارمة لم تفلح كورونا في إخمادها، إذ غالبا ما تعود حالما يُعلَن عن انفراج ولو عارض، وقد اتسمت تلك التحركات بالعنف وتحدي السلطة والقوانين، وباعتمادها الشبكة الإلكترونية في تنظيم صفوفها.

ولئن كانت التحركات السابقة تعبيرا عن سخطها على المنظومات السياسية والاقتصادية المتعاقبة التي لم تفلح في القضاء على التفاوت والبطالة وتعديل القدرة الشرائية على ضوء غلاء المعيشة، فإنها ازدادت حدّة بعد أن صار كل فرد مزوّدا بتكنولوجيات رقمية فتحت أمامه هوامش جديدة من العمل، بالمفهوم النضالي، ما منحه وزملاءَه شعورا بالقوة، وخلق اضطرابا في ممارسة الحكم وتنفيذ القوانين والقيام بما تقتضيه البلاد من إصلاحات.

إريك سادان

الفرد المستبد وجد في الوسائط الرقمية فرصة للتعبير عن غضبه

وفي فرنسا وحدها، تعدّدت الاحتجاجات وتنوّعت ما بين السترات الصفراء والمدافعين عن البيئة والمناهضين للعنصرية والمطالبة بحقوق المرأة.. بشكل مستمر عطّل مسار الحكم. فما الذي جعل الفرد أكثر تشدّدا من ذي قبل، تشدّدا يصل حدّ العنف والإضرار بالأملاك الخاصة والعامة؟

بضائع قوية

في كتابه الأخير "عصر الفرد المستبد"، يصف المفكر الفرنسي إريك سادان، المتخصّص في التكنولوجيات الرقمية، هذا التطوّر المذهل الذي حوّل، في بضعة أعوام، الفردَ المواطن الذي يحترم الإطار العام، إلى فرد مستبد يرفض منح ثقته للسلطة السياسية ولو كانت منتخبة ديمقراطيا، مثلما يرفض الاعتراف بما هو واقعي كالأحداث والعلاقات والآراء، ما يسيء إلى فكرة الحوكمة المشتركة، التي باتت شبه مستحيلة، مؤكّدا على الصلة بين الثقافات الرقمية كالجوّال وأجهزة الكمبيوتر وبين ظهور ما أسماه "الفرد المستبد".

وفي اعتقاده أن كل فرد مبحر على الشبكة صار يسمح لنفسه بالطعن في حق وجود عناصر تخالف حقيقته، التي لا تعدو أن تكون سوى حقيقة بنيت حول حياة في هذا الموقع أو ذاك من "مجموعته". وبعض "اللايكات" التي يحصل عليها إثر كل رأي، توهمه بأن رأيه، حتى وإن جرفته آراء أخرى في خضم المنشورات التي لا تتوقف أبدا، له قيمة، وسوف يحسب له حساب، والحال أن مسار الإنترنت الذي لا ينى يتكرّر ويتجدّد، يحكم بانحسار الحقل الواقعي وزيادة عدم الاكتراث لدى الآخرين.

لتفسير تلك الظاهرة، يبيّن سادان كيف مرّ الغرب الأوروبي من الفردية الليبرالية في منعطف القرن الثامن عشر، تلك المرحلة التي كانت تحمل مُثل التفتح والانعتاق في إطار مشترك، إلى الليبرالية الشرسة في الثمانينات، حيث باتت صورة "الرابح" الفرد مقدّمة على سرديات المغامرات المشتركة.

وكان من آثار ذلك إحساس بالمعاناة في العمل، وعدم الظهور اجتماعيا، ولا جدوى الذات. فقد تميّزت تلك المرحلة بتزايد التفاوت، وتدهور الخدمات العامة، ما جعل الأفراد، البسطاء بخاصة، يشعرون أنهم انتُزعوا من ذواتهم، وصاروا على هامش المجتمع.

ويقف سادان أيضا عند محطات تطوّر المستحدثات التكنولوجية في العشريتين الأخيرتين من كمبيوتر "أي ماك" لشركة "أبل"، الذي يحوي كل شيء، إلى تطبيقات التعارف والتلاقي التي تسمح باختيار العلاقات المستقبلية كما يختار المرء بضائع في الأسواق، ويعود إلى نقطة الانطلاق حين ابتكرت الصناعة الرقمية أدوات وأجهزة وحدودا مشتركة بينها، تعطي لمستخدميها إحساسا بأنهم وُهبوا قوة مضاعفة، ويتجلى ذلك خاصة في المواقع الاجتماعية عن طريق تعبير كل واحد عن آرائه وأحقاده.

وكان لذلك أثر على السلوك: كالتطهير النفسي اللاشعوري والتنفيس عن الأنا في فيسبوك، وانتصار الأفكار في مئة وأربعين حرفا في تويتر على حساب الفعل المجسّد، ونهاية التحفظ على الصورة بفعل السيلفي، والتصرّف في الشخصية كعلامة تجارية في إنستغرام، علاوة على تطبيقات أخرى، مثل أوبر، تتيح التقويم المتبادل. كل ذلك حوّل الأفراد إلى بضائع وأوهمهم في الوقت نفسه بأنهم يملكون قوة جبارة، بمقدورها أن تتحكم في كل شيء، وتجعل كل شيء خاضعا لإرادتها.

ذاتية مخيفة

"الفرد المستبد"، كما يصفه سادان، لم يعد يثق في رجال السياسة، ويحس بأنهم يغمطون حقه، ويتجاهلونه، فوجد في الوسائط الرقمية فرصة كي يعبّر عن غضبه، ولسان حاله يقول "لا أحد يتحدّث عني، إذن سأتحدّث عن نفسي لمن هم مثلي"، ما أدّى إلى تصوّر متضخّم للذات.

ففي عصر الفرد المستبد، يسعى كل فرد إلى الترويج لذاته على نحو ينبذ ويرفض كل قانون مخالف لقانونه الخاص. وبما أنه نتاج للتنمية الذاتية فإنه لا يقبل أن يحكمه أحد. وفي هذا خطر على الحياة المشتركة والعيش الآمن.

ذلك أن المجتمع، حين تحوّل أفراده إلى مقاولين يرتبون حياتهم كما يهوون، ترك روابطه المشتركة القديمة تتفسّخ لصالح مؤسسات رقمية، عرفت كيف تشدّ الانتباه وتستقطب الطاقة، تلك الطاقة التي كانت في ما مضى في خدمة الالتزام السياسي والعمل الجمعياتي أو النضال من أجل قضية عادلة.

والنتيجة، عالم يزداد عنفا وهياجا، حيث تحوّلت كلّ خصوصية إلى مصدر لمطالب مشطة، دون أن يمتلك أحد شرعية القيام بدور الوسيط، لتقريب وجهات النظر، أو حل المشكلة، ما قد يقود إلى "حرب الجميع على الجميع". ومع ظهور "الفرد المستبد" بات مفهوم واقع مشترك يترنّح، والسبب تضخّم الذات على نطاق واسع، ذلك الذي أوجدته وحثّت عليه، لأسباب تجارية صارت اليوم معلومة، التكنولوجيات الحديثة، وفي مقدمتها المواقع الاجتماعية والسمارتفون.

يقول سادان "ما أسميه الفرد المستبد هو عدد كبير من الأفراد، ما عادوا يثقون في المنظومة المشتركة والخطاب السياسي، بسبب توالي الخيبات منذ نصف قرن، فلجأوا إلى أنفسهم، للتعبير عن غيظهم". ولكن استبدادهم بالرأي، وتضخّم ذواتهم، نتيجة إفراطهم في الاعتماد على العوالم الافتراضية، قد يهدّدان مصير المجموعات البشرية أصلا.

مصر ترشح فيلما غنائيا بوجوه شابة للمشاركة في الأوسكار

القاهرة – ظلّ المخرج المصري تامر عزت يحلم لأكثر من 12 عاما بتقديم فيلم غنائي على غرار الأفلام القديمة بالأبيض والأسود، حتى حقّق حلمه من خلال فيلمه "لما بنتولد" الذي عرض للمرة الأولى ضمن الدورة الثالثة لمهرجان الجونة السينمائي في سبتمبر 2019، أما المفاجأة فكانت اختياره لتمثيل مصر في السباق إلى جوائز الأوسكار عن فئة أفضل فيلم أجنبي.

ويدور الفيلم الذي شاركت في كتابته السيناريست الراحلة نادين شمس حول قصة ثلاثة شباب يسعى كل منهم إلى تحقيق حلمه: الأول يريد أن يشقّ طريقه في الغناء، وامرأة مسيحية تقع في حب شاب مسلم، تواجه العديد من التحديات من أجل الارتباط به رغم اختلاف الأديان بينهما، وثالث يعمل في مجال التدريب الرياضي ويواجه تجربة اجتماعية تغيّر حياته.

والعمل من بطولة عمرو عابد، وابتهال الصريطي وأمير عيد، المغني الرئيسي لفريق كايروكي، في أول تجربة تمثيلية له، وهو الذي كتب ولحّن وغنّى في الفيلم أيضا.

ويقول المخرج تامر عزت إنه علم بترشيح الفيلم ليمثل مصر في الأوسكار من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، قبل أن يُبلغ رسميا بذلك، ويعبّر عن سعادته بهذا الترشيح الذي يعتبره "انتصارا لهذا النوع من الأفلام قليلة التكلفة" والمعروفة في مصر بالسينما المستقلة.

وكل عام تقوم لجنة اختيار الفيلم المصري التي تشكلها نقابة المهن السينمائية، باختيار فيلم عرض في السينما خلال السنة الفائتة، ليمثل السينما المصرية في مسابقة الأوسكار.

وتضم اللجنة مجموعة من السينمائيين منهم المخرج أمير رمسيس والناقدة ماجدة خيرالله والناقد مجدي الطيب والناقد طارق الشناوي. واختارت اللجنة العام الماضي فيلم "ورد مسموم" للمخرج أحمد صالح، وعام 2018 فيلم "يوم الدين" للمخرج أبوبكر شوقي.

وكتبت نادين شمس السيناريو الأول للفيلم العام 2007. ويقول تامر عزت "انعكست سنوات الانتظار (قبل صدور الفيلم العام الماضي) بشكل إيجابي على الفيلم. أصبحت أكثر نضجا وخبرة، طوّرتُ السيناريو الذي كتبته شمس وحاولت ألاّ أنفرد بالعمل كوني مخرجه، فشاركت كل تفاصيله مع فريق العمل والممثلين الذين أضافوا الكثير للشخصيات من واقع نظرتهم الشابة واليومية".

فيلم قليل التكلفة ثري بالمعاني

ويقول عزت إن اختباره كان جيدا مع الممثلين الذين "هم وجوه شابة وخبرتهم ما زالت في طور التكوين".

ويصنف العمل كفيلم غنائي لاحتوائه على حوار موسيقي يتسلل إلى الأحداث تدريجيا. ويؤكّد عزت أن "كل أغاني الفيلم كتبت منذ البداية كجزء من السيناريو وساهمت في بعض الأحيان في تدفق الأحداث، أي أنها صنعت بشكل خاص بما يتوافق مع السياق الدرامي للفيلم، ولم تضف إليه في ما بعد".

ويشير عزت إلى أن الفكرة استوحيت من فيلم تسجيلي سابق له ولشمس بعنوان "مكان اسمه الوطن" كان يدور أيضا حول أحلام الشباب في مرحلة العشرينات، الشباب الذين يفكّرون في الهجرة، وما هو مفهوم هذا الجيل للوطن وبحثه الدائم عن هويته وتحقيق أحلامه.

ويتابع "داخل فيلم 'لما بنتولد' كانت هناك قرارات مصيرية قدّمناها في حكايات على نطاق أوسع".

وتواجه الأفلام قليلة التكلفة إجمالا صعوبات في الحصول على جهات إنتاجية، وتتضاعف هذه الصعوبات مع عدم وجود أسماء نجوم من الصف الأول في العمل، إضافة إلى أن الأفلام الغنائية أصبحت نوعا غير رائج في الإنتاج السينمائي العربي عموما، ويعتبرها بعض المنتجين مخاطرة كونها تتطلب إنتاجا ضخما.

لكن عزت يشرح أن تجربته في هذا الفيلم ربما تغيّر مفهوم المنتجين في ما بعد وتوفّر فرصا أخرى لتقديم أعمال مشابهة. ويضيف "حاولنا الاستفادة من كل الإمكانات المتاحة أمامنا. أحيانا كنت أتولى التصوير بنفسي بكاميرا يد صغيرة. إذا نظرنا إلى ميزانيتنا السينمائي سنجده مليئا بمثل هذه الأعمال التي قدّمها الفنانان فريد الأطرش ومحمد فوزي. هما قدّماها في زمن كانت الإمكانات فيه أقل ممّا نملكه نحن اليوم من أدوات أكثر تطوّرا".

ويرجع المخرج المشكلة الأساسية التي واجهت الفيلم إلى عدم تخصيص موازنة توظف للترويج التجاري له، أي أن الفيلم لم يحصل على الدعاية المناسبة عند عرضه في السينما.

ويقول عزت إنه اعتمد مع فريق العمل طرق ترويج ذاتية وغير احترافية بسبب ضعف ميزانية الإنتاج، وذلك عبر الإعلان على صفحاتهم الشخصية على فيسبوك بمساعدة أصدقاء لهم. واستمر عرض الفيلم داخل دور السينما لمدة شهرين ثم اشترت حقوق عرضه قناة "أو.سي.أن" التلفزيونية المشفرّة.

ويرى عزت أن العرض التلفزيوني "أصبح وسيلة أكثر انفتاحا وترويجا للكثير من الأفلام السينمائية قليلة التكلفة، والتي لم تلق إقبالا واسعا من الجمهور"، إذ تحصد هذه الأفلام "انتشارا أوسع بحكم وجود التلفزيون في كل بيت".

تامر عزت

ترشيح الفيلم للمنافسة على الأوسكار انتصار للسينما المستقلة

ومن الأفلام التي اشتهرت أكثر بعد عرضها تلفزيونيا، فيلم "عين شمس" للمخرج إبراهيم البطوط، وفيلمي "فرش وغطا" و"ميكروفون" للمخرج أحمد عبدالله.

وأعلنت في وقت سابق معظم الدول العربية ترشيحاتها لجائزة أفضل فيلم أجنبي في مسابقة الأوسكار، ومنها تونس التي رشّحت "الرجل الذي باع ظهره"، والمغرب الذي رشّح "معجزة القديس المجهول"، والسودان الذي رشّح "ستموت في العشرين"، والأردن الذي رشّح "200 متر"، والجزائر التي رشّحت "هليوبوليس" ولبنان الذي رشّح "مفاتيح مكسورة"، فيما رشّحت فلسطين فيلم "غزة مونامور". ويقام حفل إعلان وتوزيع جوائز الأوسكار في نسختها الثالثة والتسعين في الخامس والعشرين من أبريل 2021 بلوس أنجلس.